قصيدة البردة (١)

مدح سيّدنا ونبيّنا محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله

ما إن مدحت محمَّداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمَّد

قال الشـــيخ محمدرضا النحوي رحمه الله، مخمســـاً قصيدة «البردة» المشهورة للبوصيري، وكان تخميســـها باقتراح بحرالعلوم الطباطبائي، وصدر تخميســـها بهذه المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

ألحمد لله الممدوح بكل لســان، الغني بظاهر محامده عن الايضاح والبيان، بديع الســماوات والأرض، باســط الفضل في الطــول والعرض، والصلاة والســلام على سيدنا ونبينا محمد المبعوث لحفظ النظام، المنعوت بما هو أهله مــن الإجلال والإعظام، وعلــى غرّ آله القماقمة الأكبريــن، وعلى أصحابه الخضارمة الأنجبين.

أمــا بعد، فيقول أفقر العبــاد إلى رحمة ربه الغني، محمد الملقب بالرضا ابن الشيخ أحمد النحوي، بصره الله بعيوب نفسه، وجعل يومه خيراً من أمسه:

إني لما وقفت على القصيدة البديعــة الغراء، والفريدة اليتيمة العصماء، للشــيخ العالم العامل، الأديب الكامل، شيخ الإســلام والمسلمين، إمام الملة والدين، الشــيخ أبي‌عبدالله محمد بن ســعيد الدلاصي المصري البوصيري، تغمده الله برحمته ورضوانه، وأفاض عليه شــآبيب عفوه وغفرانه، وقد سارت بهــا على تقادم عهدها الركبــان، وأذعن لها بالفضــل كل قاص ودان، وقد تداولتهــا الرواة، وتغنت بها الحداة، وتلقتها جميع الفضلاء والأدباء بالقبول، وهبت عليها من قدس الجلال نســمات القبول، والناس بين شارح لغامض أسرارها، وكاشف لنقاب أستارها، وبين من انبرى لمباراتها، وجرى على النسق لمجاراتها، وبين متعرض لها بالتخميس، وآخر جانح إليها بالتسديس، وبين من سبّع وثمّن ونقّح ما اشتملت عليه من المحاسن، وكل أفرغ في ذلك جهده، وما قصّر من بذل جميع ما عنده، وما ذاك إلا لما انطوت عليه من المحاســن الفائقة، واحتوت عليه من المعاني الرائقة، مضافاً إلى شــرف ممدوحها الذي جادت بما اشــتملت عليه من ذكره تراكيبها، وحسنت بما تضمنته من وصفه أساليبها،

فشرفت لذلك معانيها، ولطفت لما هنالك مبانيها:

فسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر

أحببت أن انتظم معهم في ذلك السلك، وأستوي معهم بحمد الله على ذلك الفلك، وأن لم أكن من فرسان هذا الميدان، ولا ممن ينبغي له أن يثني نحو هذه المضائق منه العنان، فقد تجمع الحلبة بين السكيت والمجلي، واللطيم والمصلّي، وقد يتزيّى بالهوى غير أهله، وتنزع نفس المرء به للسمو إلى غير محله، فجنحت في هذا إلى التسميط، راجياً من الله العصمة من الإفراط والتفريط.

ما إن مدحت محمداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

وأسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يهديني بها الصراط المستقيم، وأرجو ممن وقف منها على ما زلت به القدم، أو طغى به حال جريانه القلم أن يقابل ذلك بالعفو والصفح، ويتنكب جادة الاعتساف بالإزراء والقدح، فإنّ الإنسان محل الخطأ والنسيان، .. وإنّ أولَ ناس أولُ الناس.

وكان الفراغ من ذلك في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من رجب سنة ١٢٠١هـ قال:

ما لي أراك حليفَ الوجد والألم * أودى بجسمك ما أودى من السقم

ذا مدمع بالدم المنهل منسجم * أمن تذكر جيران بذي سلم؟!

مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدم

أصبحت ذا حسرة في القلب دائمة ومهجة إثرهم في البيد هائمة

شجاك في الدوح تغريد لحائمة أم هبّت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من إضم

نضا لك البين عضباً منه منصلتا فلست من قيده ما عشت منفلتا

إن كنت تنكر ما بالوجد عنك أتى فما لعينيك إن قلت أكففا همتا؟!

وما لقلبك إن قلت استفق يهم؟!

واهاً لصب يراه في الهوى سقم يُخفي هواه ودمع العين منه دم

فكيف يخفى ومنه القلب محتدم؟! أيحسب الصب أن الحب منكتم

ما بين منسجم منه ومضطرم؟!

تخفي الهوى وتبيتَ الليل في وجل حيران طرف بعد النجم مشتغل

تبكي بدمع على الاطلال منهمل لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل

ولا أرقتَ لذكر البان والعلم

نمت بسرك عين في الدجى سهدت وأدمع في مجارى خدك اطردت

وبينات الضنى في الجسم منك بدت فكيف تنكر حُبّاً بعد ما شهدت

به عليك عدول الدمع والسقم؟!

قد سار سرك في أهل الهوى علنا وأنت تخفي الذي أضناك منه عنا

وكم نفى عنك عذري الهوى وسنا وأثبت الوجد خطي عبرة وضنا

مثل البهار على خديك والعنم

فكم تنوح على الأطلال والدمن مجاوبـًا كل ورقـاء على فنن؟!

هل طيف ميّة ولى عنك بالوسن نعم سرى طيف من أهوى فأرقني

والحب يعترض اللذات بالألم

فدع ملامي فليس النفس مقصرة عن حبّ مـيٍّ ولا للصبر مؤثرة

لم يُبق لي الشوق للسلوان مقدرة يالائمي في الهوى العذري معذرة

منى إليك ولو أنصفتَ لم تلم

سلمتَ من دنف عندي ومن سهر ومن وشاة أداريهم ومن فِكَر
شتان ما بين حالينا لذي بصر عَدتك حالي لا سري بمستتر
عن الوشاة ولا دائي بمُنحسم
عذلتَ مَن صمَّ عند العذل مسمعه فخلِّ عنه فليس العذل ينفعه
قدقُدتنيللهدىلوكنتُأتبعه محضتَنيالنصحلكنلستأسمعه
إنّ المحب عن العذال في صمم
فكم طلائع إنذار وكم رسل بدت بفودي فما أقصرت من أملي
فكيف تطمع في رشدي بعذلك لي؟! إنياتّهمتُنصيحالشيبفيعذلي
والشيب أبعد في نصح عن التهم
أيقظتَ نفسي لأخراها فما يقظت وواعظ الموت وافاها فما وُعِظت
فدع زواجر لوم منك قد غلظت فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم
واهاً لها بالتصابي قضّت العمرا وما أصاخت لمولاها بما أمرا
ولا استعدت لزاد إذ نوت سفرا ولا أعدت من الفعل الجميل قِرى
ضيف أَلَمَّ برأسي غير محتشم
يُبشر المرء لو أصغى وينذره فيما يُرجيه في العقبى ويحذره
فساء عندي لسوء الفعل منظره لو كنت أعلم أني ما أوقره
كتمت سراً بدا لي منه بالكتم
فيا لنفس تمادت في عمايتها واستبدلت بضلال من هدايتها
فما احتيالي وقد ندت لغايتها؟! من لي برد جماح من غوايتها
كما يرد جماح الخيل باللجم؟!

نبت فضيعت الدنيا بنبوتها ومذكبت ضاعت الأخرى بكبوتها
فإن ترد ردّها عن غيِّ صبوتها فلا تَرم بالمعاصي كسر شهوتها
إن الطعام يُقوّي شهوة النهم
ولا تذرها على ما تشتهي هملا فرب شهوة نفس قرّبت أجلا
فالنفس طوع الفتى إن جار أو عدلا والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم
أسخطتَ ربك فيما كنت مقصيه من صالح وقبيح رحت مدنيه
فإن ترد أن يراك الله مرضيه فاصرف هواها وحاذر أن تواليه
إنّ الهوى ما تولى يُصم أو يَصم
لا تغترر بهداها فهي رائمة للغي طبعاً وللأسواء سائمة
فافطن لها وهي بالطاعات قائمة وراعها وهي في الاعمال سائمة
وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم خاتلتك وما زالت مخاتلة؟! توليك قطعاً تراها فيه فاضلة
كم زينب عزة بالذل شاملة؟! كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أنّ السم في الدسم؟!
لا خير في طمع يفضي إلى طبع ومنظر حسن ذي مخبر شنع
فساو حاليك في يأس وفي طمع واخش الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخمصة شر من التخم
برتك نفس من الأدواء ما برئت ولا انبرت لشفاء قط مذ برئت
فانهض إلى برئها لو أنها برئت واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت
من المحارم والزم حمية الندم

رمتك منك عُداة أقصدتك فما أبقت بقلبك بعد اليوم غير ذما
فكن بطاعة من أنشاك معتصما وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم
فكم أبادا بكيد منهما أما ونكسا من أخي علم به علما
فلا تكن لهما في حالة سلما ولا تطع منهما خصماً ولا حكما
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فأعجب لأمر قوم غير ممتثل وعاذل عن هواه غير منعذل
كم قد نصحت وكم في القلب من دغل استغفر الله من قول بلا عمل
لقد نسبت به نسلاً لذي عقم
فيا لقلب تمادى في تقلبه يؤدب الناس ساه عن تأدبه
أوجبت أمراً ولم أعمل بموجبه أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
وما استقمت فما قولي لك استقم
أفنيت أيام عمري الغض كاملة ولا أرى النفس عما ساء عادلة
لم أثن نفساً إلى الآثام مائلة ولا تزودت قبل الموت نافلة
ولم أصلّ سوى فرضي ولم أصم
فكم سهرت الدياجي في العكوف على ما ليس ينفع لا علماً ولا عملا؟!
أبيت ليلي بما لم يغن مشتغلا ظلمت سنة من أحيى الظلام إلى
إن اشتكت قدماه الضر من ورم
كم قد تعرضت الدنيا له فلوى عنها العنان وما ألوى لها ولوى؟!
وكم طوى كشحه من لذة وطوى وشد من سغب أحشائه وطوى؟!
تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

تطلبته وحاشاه بلا طلب بـكل ما في كنوز الأرض من نشـب
فصد عما بها من زبرج كذب وراودتـه الجبـال الشـم مـن ذهـب
عن نفسه فأراها أيما شمم
جفته للزهد في الدنيا عشيرته فما عدت خيرة الرحمن خيرته
قد بصرته بما فيها بصيرته وأكـدت زهـده فيهـا ضرورتـه
إنّ الضرورة لا تعدو على العصم
كم صد عن زهرة في روضة وفنن علماً بتلك الرياض الخضر خضر دمن؟!
لم يدعه نحوها ضر وطول شجن وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم؟!
لوت بمنسبه الأنساب آل لؤي واستقصت المجد والعلياء آل قصي
وكم محا عن ضريح الحق شبهة غي محمد سيد الكونين والثَقَلي
من الفريقين من عرب ومن عجم؟!
كم في «نعم» قد أفيضت من يديه يد وكم تنزه في «لا» واحد أحد؟!
أتى بأمرين كل منهما رشد نبينـا الآمـر الناهـي فـلا أحد
أبر في قول «لا» منه ولا «نعم»
هو الشفيع لمن قلّت بضاعته في الصالحات ومن طالت إضاعته
فأعدده للهول إن هالت فظاعته هو الحبيب الذي ترجى شفاعته
لكل هول من الأهوال مقتحم[1]

دعا فجلّى العمى عن وجه مذهبه كما جلا البدر ليلاً جنح غيهبه

دعا ففاز ملبيه بمطلبه دعا إلى الله فالمستمسكون به

مستمسكون بحبل غير منفصم

كم من نبيّ مع المختار متفق في النعت مختلف في الفضل مفترق؟!

فيا نبياً بفضل فيه متسق فاق النبيين في خَلق وفي خُلق

ولم يدانوه في علم وفي كرم

به أضاء لموسى في الدجى قبس فالبحر منفلق والماء منبجس

والكل من نوره للنور مقتبس وكلهم من رسول الله ملتمس

غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

هو المثابة إن طافوا أو التزموا فالبعض ملتمس والبعض مستلم

فهم قيام بما يقضي ويحتكم وواقفون لديه عند حدهم

من نقطة العلم أو من شكله الحكم

أعلانه وفق ما تخفي سريرته وسيرة الله فيما شاء سيرته

فهو الصفيّ لباريه وخيرته وهو الذي تمَّ معناه وصورته

ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم

إن قال فالدرّ يزهو في معادنه أو جال فالليث يسطو في براثنه

مبرَّءاً في علاه عن موازنه منزّه عن شريك في محاسنه

فجوهر الحسن فيه غير منقسم

كم حار في كنه معنى ذاته أمم فالبعض فيه هدوا والبعض فيه عموا؟!

فدع مقالة من زلت به القدم دع ما ادعته النصارى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فكم نوابغ آيات وكم صحف تروى له خلفاً في المجد عن سلف؟!

فانسج لأمداحه ما شئت من تحف وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

كفاه ما من مزيد الفضل خوَّله من للورى بالهدى والحق أرسله

فما مقال امرئ بالمدح بجّله فإنّ فضل رسول الله ليس له

حدّ فيعرب عنه ناطق بفم؟!

كم آية نكّست من جاحد علما قد جلّ عن قدرها قدراً وجلّ سُما؟!

كي لا تضل به لو ناسبت أمما لو ناسبت قدره آياتُه عظما

أحيى اسمه يدعى دارس الرمم

وافى بأعجب برهان وأغربه يَـردّ في صدقه دعــوى مكذبه

ومذ دعانا إلى إفصاح مذهبه لــم يمتحنا بما تعيى العقول به

حرصاً علينا فلم نرتب ولم نَهم

دنا فشط فأعيا كنهه البشرا فمــا أحــاط بمعناه امــرؤ ودرى

وكلما امتحنوا في ذاته نظرا أعيا الورى فهم معناه فلست ترى

للقرب والبعد فيه غير منفحم

داني التواضع سامي المجد ذو حيد فالنفس في صبب والمجد في صعد

فأعجب لمقترب للعين مبتعد كالشمس تظهر للعينين من بعد

صغيرة وتكل الطرف من أمم

قد هذب الله إعظاماً خليقته ولــم ينبــه لمعنــاه خليفتــه

فكيف يبلغ ذو جهد طريقته وكيف يدرك في الدنيا حقيقته

قوم نيام تسلوا عنه بالحلم؟![٢]

لها تتمة في العدد القادم.

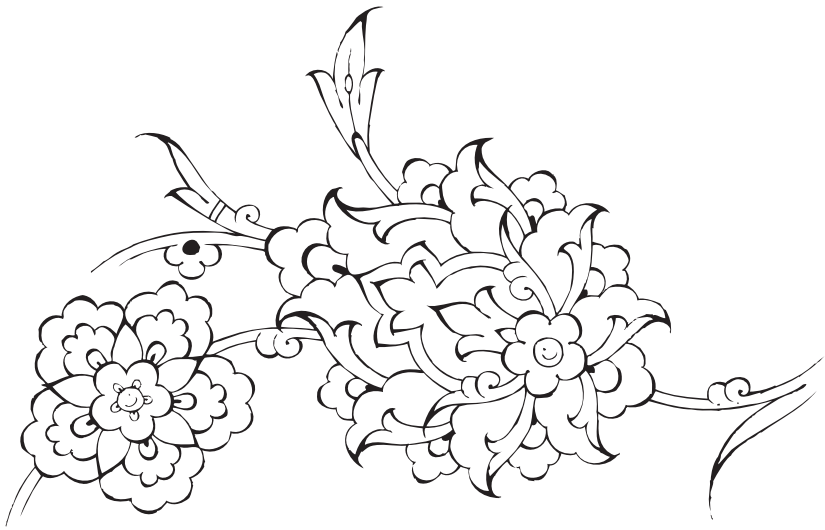

الهوامش:

١ . هــو الحبيب الذي ترجى شــفاعته * لكل هول من الأهوال مقتحم؛ كتب هذا الشــعر على بــاب بيت فاطمة الزهــراء عليها السلام في المســجد النبــوي الشريف.

٢ . أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين٩ : ٣٠٣ ـ ٣١٠ ؛ مجلة تراثنا ـ مؤسســة آل البيت عليهم السلام ٦٠ : ٣٢٦ ـ ٣٣١.